الرحلة "في مدينة الضباب ومدن أخرى" للدكتور عبد الله ركيبي

أ.د مصطفى فاسي

جامعة يوسف بن خدة- الجزائر

يتألف كتاب "في مدينة الضباب ومدن أخرى" (منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، 2003) من مقدمة وأربعة عشر عنوانا.

وإذا كان عنوان الكتاب يوحي بأن محتواه هو تصوير "رحلات" قام بها الدكتور عبد الله ركيبي إلى مجموعة من المدن من بينها مدينة لندن، وهو أمر صحيح، فإن هذه الرحلات ليست مجرد وصف يقدمه المؤلف من الخارج، أي بحياد عما يقدمه، فشخصية المؤلف موجودة بقوة في جميع نصوصه وفقراته. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه يجوز لنا أن نعتبر هذه الرحلات رحلات ثقافية. ومن تم يمكن أن نقول إن هذا الكتاب هو رحلة في الثقافة، أو بمعنى آخر في الثقافة الحضارية، ونعني بذلك طرح موضوع الثقافة والحضارة بين الشرق والغرب، من خلال الرحلة.

وقبل أن نستعرض محتوى الرحلات التي قام بها الدكتور ركيبي إلى مجموعة العواصم والمدن التي زارها، لابد أن نعرج على جانب مهم في الكتاب، وهو المتعلق بشخصية المؤلف نفسه.

فنحن من خلال إشارات خفيفة ومن خلال فقرات متفرقة، متفاوتة الحجم والأهمية نستطيع استخراج صورة، ولو تقريبية عن جوانب من شخصية المؤلف الدكتور ركيبي.

ولاشك أن الصفة الأولى التي تفرض نفسها علينا ونحن نطالع صفحات الكتاب هي "قوة الإرادة" التي كان يتمتع بها د/ ركيبي، وأفضل مثال على ذلك إصراره على تعلم اللغة الإنجليزية، ولو في كبره. وقد اعتبر الأمر تحديا خاصا منه.

وإذا كان قد أشار إلى أن تعلم الإنجليزية كان دائما هاجسا يشغله، فإن السبب المباشر الذي جعله يصمم تصميما قاطعا على خوض غمار هذا الأمر يرجع إلى ما يمكن أن نسميه حادث مانيلا. عندما وجد نفسه أمام موظف استعلامات الفندق مثل الأبكم لأنه لا يعرف الإنجليزية مما جعله، وهو الأستاذ الجامعي والكاتب – يستعين بأديب آخر للتفاهم مع هذا الموظف، من الواضح أن هذا الموقف كان له تأثيره القوي في نفسه "تضاءلت شخصيتي، نسيت مكانتي كأستاذ وكاتب وفكرت في وضعي الحرج في تلك اللحظة وتصبب العرق من جبيني وأنا أسمع ترجمة الكلمة المطلوبة" (في مدينة الضباب، ص 25).

وهو في تلك اللحظة يزداد سخطا على فرنسا التي عملت على فرض لغتها على الجزائريين حارمة إياهم من لغتهم العربية، وموحية لهم بأن لغتها هي أهم اللغات، والحقيقة أن الإنجليزية هي اللغة الأولى في العالم. ويضيف أنه بعد ذلك الموقف فقط فهم "لماذا لا يشعر بالغربة أولئك الذين يدافعون عن الفرنسية في بلادنا لأنهم لم يسافروا أو يسيحوا في العالم الفسيح الذي يتحدث الإنجليزية" (في مدينة الضباب. 25).

فالعالم بالنسبة إلى بعض الجزائريين هو باريس وحدها.

وهكذا، فالتحدي والصبر والإرادة القوية، هو ما جعله لا يكتفي فقط بتعلم اللغة الإنجليزية، ولكن يتعدى ذلك أيضا إلى البحث بها رغم الصعوبة الكبيرة، فكان كتاب "الجزائر في عيون الرحالة الإنجليز" نتيجة تعلمه هذه اللغة التي أحبها وقدرها، ونتيجة عامين من التفرغ قضاهما في بريطانيا يبحث ويجمع المراجع المتعلقة بالموضوع، فكانت الحصيلة من هذه المراجع –كما يقول كبيرة "أظن أنه لا يوجد من يملك مثلها حتى من الإنجليز أنفسهم" (في مدينة الضباب. 61).

وقد خرج من لندن التي يحبها، ومن التفرغ للبحث "بهذا الكتاب لعله يفيد الناس ويخدم التاريخ الوطني" (مدينة الضباب. 152).

وهو الذي أشار من قبل إلى الفراغ الموجود بالنسبة إلى دراسة أو ترجمة الرحلات المكتوبة عن الجزائر باللغة الإنجليزية. فهو إذن بتأليفه هذا الكتاب يسد فراغا كبيرا في هذا المجال.

هذا جانب من جوانب شخصية الدكتور عبد الله ركيبي، وهو المتمثل في طبيعة هذه الشخصية الجادة، الصارمة، المتحدية، المكافحة منذ طفولته الأولى إلى أواخر حياته.

ويثير الكتاب جوانب أخرى من شخصية د/ ركيبي يجب التطرق إليها لأهميتها في تقديم مزيد من تعميق التعرف على هذه الشخصية الفذة، فبالرغم من أن هذه الشخصية واضحة في صراحتها، ومباشرتها وتلقائيتها وصدقها الخ... فإن هنالك إشارات في الكتاب لها أهميتها في استكمال صورتها. من بين ذلك مثلا ذكره أن هوايته المفضلة في التسلية هي لعبة الشطرنج، التي كان وهو في لندن يلعبها مع آلة خاصة بذلك، بحيث يقضي وقتا طويلا في أحد المتاجر الكبيرة متحديا تلك الآلة، مع العلم أن أول عهده بهذه اللعبة يرجع إلى شبابه الأول. وهو معتقل بمدينة آفلو سنة 1956 حيث كان يلعبها مع أحد أصدقائه هو عبد القادر المنفي مثله بهذه المدينة، وقد كانت تهمة النفي ممارسة تعليم العربية بمدرسة بناها المواطنون بمنطقة ندرومة بأموالهم الخاصة.

ولا يجب أن يخفى علينا معنى تفضيل هذه الهواية على غيرها، فهي معروفة بأنها تعتمد على الذكاء والتركيز، ويمكن اعتبارها لعبة السياسيين والمثقفين الخ..

ومن بين المواقف –أيضا– التي تدل على طبيعة شخصية د/ ركيبي ما رواه وهو في مانيلا –عن رفضه الاصطفاف مع المصطفين من الكتاب والأدباء لتسلم كتاب الرئيس الفلبيني ماركوس بإهدائه، هذا الكتاب الذي يحكي عن سيرته الذاتية وعن نظام حكمه هذا البلد، مع العلم أنه "رجل يحكم بلاده بالحديد والنار" (في مدينة الضباب، 27)، كما رفض السفر في جولة سياحية إلى الجزيرة التي ولدت فيها السيدة ماركوس" التي قيل أنها تملك أسهما في الفندق الضخم المخصص للضيوف.

وقد أبدى – على عكس ذلك– رغبته في التعرف على الوجه الآخر لمانيلا، وكان له ذلك عندما رافقه مجموعة من الأدباء الفلبينيين ذوي الحس الشعبي، وهناك رأى "البؤس بعينه والفقر المدقع في هذا الوجه المظلم من المدينة..." (في مدينة الضباب. 30) كما رأى "الأكواخ الخشبية متناثرة بل متلاصقة يسكنها بشر لا تستطيع إدراك ملامحهم بدقة.." (في مدينة الضباب. 30).

ولابد من الإشارة إلى أن هذا الموقف من الدكتور ركيبي (عدم الانخداع بالوجه البراق للمدينة، والرغبة في الاطلاع على الحقيقة كلها) هو من الأمور – كما يبدو لي– التي كانت لا تفوته أبدا، وهو الخبير المجرب.. وأشهد أنني عندما سافرت معه إلى المجر سنة 1975، وبعد زياراتنا الكثيرة للمعالم المشهورة والأماكن الجميلة برفقة مرافقنا المجري"، في هذه الزيارات، مع ضرورة الإشارة إلى الترحيب الذي كنا نحظى به في كل زيارة، فإن الدكتور ركيبي اقترح علي ذات مساء "غير مبرمج" أن نبحث بأنفسنا عن حي ذي طابع شعبي، ففعلنا وجلسنا في مقهى عادي من المقاهي التي يؤمها بسطاء المجتمع، وعشنا سويعة وسط هؤلاء وهرجهم ومرجهم، وإن كانت اللغة قد حرمتنا من التواصل معهم، وإن تم التواصل مع شاب أردني يعيش في المجر عرفنا من سحنتنا فسلم وجلس معنا عدة دقائق، حدثنا فيها عن هموم العرب ومشاكلهم أكثر من حديثه عن المجريين، وإن كان من الواضح – على كل حال– أن المجر تختلف اختلافا كليا في طبيعتها وطبيعة سكانها ..الخ .. عن الفليبين.

ونحن بصدد الحديث عن طبيعة شخصية الدكتور ركيبي، لابد من الإشارة إلى دقته في احترام المواعيد، والوقت، "ففي الغالب أصل قبل الوقت المحدد بربع ساعة" (في مدينة الضباب. 34) كما يقول.

وقد روى لي بهذا الصدد أنه عندما كان يعيش في إحدى العواصم العربية قد قطع علاقته بأحد معارفه من أهل البلد بسبب أن هذا تهاون في موعد كان قد حدده

معه، وعندما التقاه ونبهه إلى عدم الحضور في الموعد، أجاب وهو يضحك بشكل يدل على نوع من الاستخفاف وعدم الجدية..

وللأطفال في نفس الدكتور ركيبي وحياته موقع هام،

وهو يشير أثناء الرحلة الطويلة إلى الاتحاد السوفياتي سنة 1974 إلى الطفل الجزائري الذي جعل ركاب الطائرة ينشغلون به بسبب خفة روحه وغنائه بمختلف اللغات مما جعل منه تسلية جميلة لهم.

وهو ينطلق في موضع آخر من الكتاب من الحديث عن حركة حفيده الصغير أمين ليتطرق إلى موضوع "اهتمام الألمان بل معظم الأوربيين بالطفل، فهو لديهم ملك غير متوج" (في مدينة الضباب. 178/ 179).

ويستطرد لكي يتحدث عما توفره هذه المجتمعات المتطورة للطفل من ألعاب ووسائل وأجواء.. ثم لا ينسى أن يقارن ذلك كله بما عندنا "وطريقتنا في التربية تبدو قاسية إلى أبعد الحدود لا في البيت فحسب بل في المدرسة وفي الشارع وفي كل مكان تماما مثلما يتعرض له المواطن من ألوان القمع في العمل وفي الحياة بوجه عام" (في مدينة الضباب. 180).

ولنلاحظ الإشارة الصائبة إلى هذا الربط المنطقي بين ما يتعرض له الطفل في مجتمعنا. وما يتعرض له المواطن بصفة عامة، مع العلم أن الجزائري في الخارج هو غيره في داخل الوطن، وذلك لأن "الداخل يقهره" (في مدينة الضباب. 120).

ولن نغادر جانب ما يتعلق بطبيعة شخصية الدكتور عبد الله ركيبي قبل أن نعرج على مسألتين طريفتين وردتا في كتابه تدلان على لطفه وخفة روحه المعروف بهما على كل حال.

الأولى حدثت بمناسبة رحلته إلى الاتحاد السوفياتي عام 1974 فقد كان هو مدعوا لحضور الاحتفال بتأسيس اتحاد الكتاب السوفيات وكان معظم المسافرين بالطائرة طلبة جزائريين، وبسبب كونه مدعوا فقد كان في المطار من ينتظره، فنودي على اسمه دون المرور بالإجراءات العادية التي يتطلبها الدخول.. يقول د/

ركيبي: "حين هممت بتلبية النداء صافح أذني تعليق ضاحك من أحد الطلبة الجزائريين يقول: هذا عنده الأكتاف..؟ وضحكت للنكتة اللاذعة " (في مدينة الضباب. 212).

أما المسألة الثانية، فهي المتعلقة بحساسيته من الريش، يقول: "من المفارقات الغريبة أن لدي حساسية من ريش الطيور فلو وضعت رأسي على وسادة بداخلها الريش يطير النوم من عيني وأصبح في غاية الضيق والتوتر" (في مدينة الضباب.138).

وهو الأمر الذي حدث له بحضوري في بودابست، فقد كنت أظن أنه سينام نوما مريحا وعميقا بعد تعب السفر الطويل انطلاقا من الجزائر ومرورا بباريس خاصة وأن فندق "روايال" الذي كنا نسكنه كان فندقا فخما ومريحا، إلا أنني وجدته في الصباح متعبا يشكو من عدم النوم، وقد حكى لي أنه لم يتفطن إلى السبب في ذلك إلا في آخر الليل، عندما عرف أن المخدة كانت محشوة بالريش، وعلى كل حال فقد عوض النوم في الليلة التالية عندما استبدلت هذه المخدة بأخرى محشوة بالقطن. وهاهو يعلق على الأمر بقوله "أمر مضحك فعلا، فالناس عادة يتمنون النوم على فراش من الريش وهو دليل على الرفاهية والترف وأنا أتشاءم منه حتى بت أسال دائما عن نوع الوسادة" (في مدينة الضباب. 138).

وإضافة إلى كل ما ذكرناه من الأمور المتعلقة بطبيعة هذه الشخصية السمحة، ولمزيد من إلقاء الضوء عليها وعلى عمق الطابع الإنساني الذي تتميز به، فإنه لابد من التطرق لجانب هام في هذه الشخصية، لأنه مكون أساسي من مكوناتها وهو جانب الصداقة.

فالصداقة عند الدكتور عبد الله ركيبي تتسم بالتقديس، وهو يشيد بها كثيرا، فهو يشير في أكثر من موضع في الكتاب إلى اعتزازه بصدقات اكتسبها عبر عشرات السنين ويرجع بعضها إلى حوالي نصف قرن. وقد كانت هذه الصداقات ثمرة لقاءات أحيانا عابرة وأحيانا أخرى، ثمرة معايشة، أو زمالة مر بها في أزمنة وأمكنة مختلفة.

ومن بين أهم الأصدقاء الذين خصص لهم صفحات من كتابه، الأديب المصري القاص فاروق منيب، الذي عرفه أولا في القاهرة وذلك سنة 1961، والذي يصفه بقوله "شاب ضخم الجسم في رأسه صلع لا تخطئه العين، ملامحه تنبئ بأنه ينحدر من ريف مصر" (في مدينة الضباب. 39).

ويذكر أنه حين التقى به لأول مرة في الجامعة وعرف أنه من الجزائر، تهللت أسارير وجهه وعبر عن فرحته بلقائه. وها هي المصادفة قد جعلته يلتقي به مرة أخرى بعد أكثر من ثلاثين سنة من اللقاء الأول، ولكن هذه المرة في لندن وقد جاء إليها د/عبد الله ركيبي في منحة دراسية، بينما حضر إليها فاروق منيب للعلاج من مرض "الفشل الكلوي". وقد أشاد الدكتور ركيبي بهذا الرجل وبأخلاقه الرفيعة، وكفاحه في الحياة، وإقباله عليها حتى في أشد الظروف قساوة: "كنت أعجب من نضاله المستميت ضد المرض ومحاولته التمسك بالحياة، كان ينشر المقالات والقصص في الصحافة العربية بالمهجر ويراسل صحفا مصرية وكانت زوجته تعمل أيضا في الميدان نفسه ويكافحان معا كي يستطيعا العيش في بلد يتطلب إمكانات مادية كبيرة" (في مدينة الضباب. 46- 47).

أشاد الدكتور ركيبي بقوة شخصية هذا الرجل وقدرته على مجابهة الحياة، وتحمله المرض في الوقت نفسه" كان صبره يتجلى في بقائه أكثر من أربع ساعات على هذا الوضع (عند خضوعه لآلة تصفية الدم) دون أن يتذمر أو يتأفف بل على العكس كان يلقي بالنكت كعادته الواحدة تلو الأخرى واعتبر أن ما أصابه قضاء وقدر ولكنه كان يلقي باللوم على الفقر الذي يعاني منه سكان الريف وهو واحد منهم، فقد غزت جسده "البلهارسيا" وهو صغير وسببت له كل ما عانى منه" (في مدينة الضباب .47).

وإذا كان هناك شيء تألم منه فاروق منيت وشكا منه لصديقه د/ركيبي فهو نسيان بعض الأصدقاء له، وإن كان في الوقت نفسه يشيد بأصدقاء آخرين لم ينسوه.

"مقدرا وفاءهم لأنه هو نفسه كان وفيا في صداقته وفي وده ومحبته" (في مدينة الضباب.48).

لم يكسب الدكتور ركيبي في القاهرة صداقة فاروق منيب وحده، ولكن هذا عرفه على أساتذة وأدباء آخرين ظل يعتز بصداقتهم طوال حياته من بينهم، عبد القادر القط، وأنور المعداوي، وعبد المحسن طه بدر، ورجاء النقاش من مصر، وإبراهيم الحضرمي من اليمن. "الذي سجنه إمام اليمن ثماني سنوات قضاها في الأشغال الشاقة مقيدا بالسلاسل حتى أنقذه الرئيس الراحل عبد الناصر فتدخل لإطلاق سراحه" (في مدينة الضباب.40).

ويعتز الدكتور ركيبي بعد ذلك بتعرفه في القاهرة على "أساتذة أجلاء" من أمثال عبد العزيز الأهواني، ومحمد شكري عياد، وعبد الحميد يونس، والأستاذة المعروفة التي أشرفت عليه في الدكتوراه سهير قلماوي، ثم شوقي ضيف، وعبد المنعم تليمة، وأحمد مرسي (أنظر في مدينة الضباب. 43).

وفي القاهرة تعرف أيضا على مجموعة هامة من الطلبة الجزائريين وربطته بهم صداقة متينة، وقد صار بعضهم أساتذة معروفين، أو دارسين مرموقين، أو أصحاب مناصب في الإدارة، الخ.. ومن بينهم: أبو القاسم سعد الله، ومحمد طالب، ومحمد بلعيد، ومحمد الصغير الأخضري، وعبد القادر حليمي، ومحمد العربي ولد خليفة، ومحي الدين عميمور، وعبد القادر نور، وعمار طالبي، وجمال قنان، والجنيدي خليفة، وعبود عليوش، والطاهر حمروني الخ.. (أنظر في مدينة الضباب.44).

ونحن نقرأ كتابه تشعر أن الدكتور ركيبي يعتز أيما اعتزاز بهذه الصداقات التي أقامها مع هؤلاء الأساتذة والأدباء وغيرهم في مختلف المدن والبقع التي زارها أو عاش فيها.

وإذا كانت القاهرة، وهي المدينة الساحرة –كما يقول عنها– من بين هذه المدن والبقع هي التي نالت حصة الأسد في هذا الموضوع بسبب كونها تمثل سنوات

الدراسة الجامعية، أي سنوات التفتح على الأدب والمعرفة والثقافة والحياة، فإن الدكتور ركيبي لا يهمل ذكر صداقات أخرى في الشرق والغرب.

ففي لندن تعرف على أساتذة عرب كانوا يقومون بتدريس اللغة العربية للإنجليز، وقد عقد "صداقات كثيرة معهم" (في مدينة الضباب 58).

ومن بين من تعرف عليهم هناك أيضا صلاح باخشوين من السعودية، وعبد المجيد فريد الذي اشتغل مع الرئيس جمال عبد الناصر، وخلدون الشمعة الناقد السوري المعروف، والأستاذ مصطفى بدوي وسلمى حضراء الجيوسي الخ.. كما لا ينسى أنه التقى في انكلترا مصطفى صواق، و"الصديق الودود محمد العربي ولد خليفة" (في مدينة الضباب. 142) الذي يصفه بأنه "من المدافعين عن الهوية الوطنية وثوابتها بجرأة وشجاعة نادرتين، وقلمه جاد لا يشق له غبار" (في مدينة الضباب 143) وقد حكى له عن الانتخابات الأخيرة (.....) "حكايات كثيرة شاهدها أثناء تلك التجربة وهي حكايات مؤسفة ومضحكة في الوقت نفسه (في مدينة الضباب. 144).

كما تعرف من خلال مشروعه الخاص بتأليف كتاب عن الرحالة الإنجليز إلى الجزائر على "الصديق الدكتور بودنهام" الذي أشاد كثيرا بوقوفه معه، ومساعدته في البحث عن المراجع التي يحتاج إليها.

وفي دمشق التي يقول عنها بأن "العربي لا يشعر إطلاقا بالغربة فيها لأن العروبة عريقة عراقة العرب في هذه الديار (في مدينة الضباب. 68) والتي زارها مرارا قبل أن يتولى فيها منصب وزير مفوض مكلف بالثقافة بالسفارة الجزائرية، ثم سفير للجزائر لدى سورية، يعتز د/ ركيبي بصداقته لمجموعة من الأساتذة مثل: عمر موسى باشا، وإحسان النص، وهشام صفدي، ومحمود الربداوي، وبديع الكسم، واسعد الدرقاوي، وشكري فيصل. كما عاد منها بصداقة بعض أعضاء السفارة الجزائرية من بينهم على الخصوص السفير عبد القادر بن قاسي، والطيب سعدي، والسعيد قصار.

هكذا يشعرنا الدكتور عبد الله ركيبي أن أجمل ما اكتسبه من تلك المدن والبلدان التي زارها أو عاش فيها –بالإضافة إلى ما استفاده منها من علم ومعرفة واطلاع– هي تلك الصداقات الغالية على قلبه، والتي ظل طوال حياته يعتز بها، ويوليها كثيرا من التقدير.

هذا عنصر هام من العناصر المكونة لهذا الكتاب، وهو يزيدنا معرفة بمدى ما يتمتع به مؤلفه من حس ثقافي عميق، ومشاعر إنسانية وأخلاقية عرف بها.

ولذلك فإننا نعتقد أن "الرحلة" في هذا الكتاب ليست رحلة إلى تلك المدن والعواصم والبلدان، فحسب، التي خصها المؤلف بفصوله بل هي رحلة في ذات المؤلف، وداخل أعماق شخصيته.

وإذا كان ما مر بنا من صفحات يدل على هذا الأمر فإن ماسيلي من صفحات أخرى سيزيده تأكيدا، ومن بين ما يدل على ذلك غلبة الحس الثقافي لديه، وإحساسه بالطبيعة وجمالها وبروز الروح الوطنية، وكذلك القومية عنده.. الخ..

فالعنصر الثقافي، أو بالأحرى الثقافي الحضاري هو العنصر الغالب في الكتاب كله من بدايته حتى نهايته، إلى درجة إحساسنا بأن د/ ركيبي وهو يقوم بهذه الزيارات لم يكن يترك نفسه تسرح على سجيتها، فترتاح وتتمتع بهذه الزيارات، ولكنه كان يجعل الهم الثقافي دائما هو الغالب، هو المسيطر، هو الهدف.. أو هو المتعة الحقيقية.

فها هو –مثلا– يقول لنا في فصل "مع الأسرة في لندن" "الهدف ليس التجوال بقدر ما هو المعرفة والتثقيف" (في مدينة الضباب.. 84) وها هو يضيف بعد قليل محددا موضوع هذه المعرفة والتثقيف "ليعرفوا (أي أفراد الأسرة) المجتمع الانجليزي عن قرب بتقاليده وعراقته، والتعرف على الحضارة الأوربية على حقيقتها") في مدينة الضباب. 84/ 85)

وبالفعل فإننا عندما نعود إلى تتبع المعالم والمؤسسات والمواقع، الخ التي زارها، سواء في هذه الزيارة أم غيرها، نجده قد طبق ذلك بكل صرامة وحزم.

ونحن نعثر في أكثر من موضع من كتابه على عرض مفصل لأسماء هذه المعالم والمؤسسات والمواقع، والتي من بينها في لندن متحف الشمع الخاص بالشخصيات المعروفة، وجامعة لندن، وهايد بارك التي يهاجم فيها الخطباء من يريدون وما يريدون دون أن يخافوا "عقابا بالسجن أو الملاحقة أو بغير ذلك من الأساليب المعروفة في عالمنا نحن بكل أسف" (في مدينة الضباب.130) فبريطانيا معروفة بعدالتها، وهي "أم الديمقراطية في العالم، ويكفي أن نعرف أن قانون فرض حزام الأمن قد نوقش في برلمانها مدة عامين كاملين، ثم ساحة البيكاديللي، وساحة الطرف الأغر، ذات التسمية العربية –كما هو واضح– التي تعج بالحمام المستأنس بالإنسان.. وكذلك حضور تبديل الحرس الملكي، وهو من التقاليد المثيرة للاهتمام، ومن "المعروف عن الإنجليز أنهم يحافظون على تقاليدهم التي يتوارثونها أبا عن جد" (في مدينة الضباب. 94). وساعة بيغ بن، ومبنى البرلمان، ومبنى بي، بي، سي، ونهر التايمز، والمسجد الجامع، وحديقة ريجنت بارك، والمكتبات العامة.

"فالثقافة هنا – كما يقول– مثل الهواء يتنفسها الناس أينما اتجهوا" (في مدينة الضباب.96).

وقد لفتت انتباهه –مثلا– رسوم منحوتة على جدار، فلما قرأ ما كتب عنها وجد أنها تمثل "ست شخصيات ظهرت في روايات الأديب الإنجليزي المعروف تشارلز ديكنز" (في مدينة الضباب. 151) نحتها أحد الفنانين عام 1860، وهو يعلق على هذا بقوله "هذا هو الفرق بين الشعوب والأمم، بين من يقدر العبقرية ومن يدفنها وهي حية وقد لا يعرفها ولا يعرف ما قدمت من إبداع وعلم وفن" (في مدينة الضباب. 152).

وقد لاحظ في زياراته الأخيرة ظهور مواضيع جديدة عند خطباء الهايد بارك، في الدين والسياسة، مثل موضوع فلسطين. ومحمد الذرة، كما لاحظ أن من يدافع عن الصهيونية لم يعد له جمهور كالسابق، كما لاحظ اهتماما زائدا بالحيوان.

وإذا كان عنصر الثقافة هو العنصر الغالب على مختلف "رحلات" هذا الكتاب فإن حضور هذا العنصر في فصل "على ضفاف الدانوب" كان أكثر بروزا، ربما بسبب أن الرحلة التي يقدمها هذا الفصل كانت بدعوة من اتحاد كتاب المجر، مما جعل برنامج الزيارة يرتكز أساسا على الجانب الثقافي.

ذكر الدكتور ركيبي في بداية الفصل أن الوفد كان يتكون منه ومن كاتب شاب –آنذاك– هو مصطفى فاسي، وهذا "بناء على اقتراح من أعضاء الهيئة الإدارية للاتحاد" (في مدينة الضباب. 197). القاضي بأن يتضمن كل وفد للكتاب مسافر إلى الخارج أديبا شابا، وقد طبقت هذه السياسة بشكل جعل كثيرا من الأدباء الشباب يستفيدون من هذه الأسفار التي أتاحت لهم فرصا ممتازة لتعميق تجاربهم عن طريق زيارة البلدان المختلفة والاحتكاك بأدبائها ومثقفيها...

وقد صور الكاتب إعجابه بهذا البلد الجميل مشيرا أولا إلى المرارة التي مازال الشعب المجري يشعر بها بسبب "الإنزال السوفياتي" سنة 1956 عند تمرد المنشق يانوس كادار، ثم متطرقا بعد ذلك إلى غني هذا البلد ثقافيا. وقد برز ذلك من خلال أمور كثيرة من بينها، نشاط اتحاد الكتاب ولجانه المختلفة الذي كان يستقبل –كما قيل لنا أثناء الزيارة– حوالي ألف وفد أجنبي في السنة. ومن بينها المتاحف المتنوعة الكثيرة، والمجلات المتخصصة، والمكتبات، ومن ذلك أيضا الاهتمام الكبير بالرسم والفن التشكيلي بصفة عامة، وعلمنا أيضا بظاهرة انتشار الشعر على نطاق واسع وخاصة لدى الشباب، فـ "المجر تأتي في هذا المجال (الشعر) في المقام الأول بالنسبة للعالم الغربي" (في مدينة الضباب.205) وهناك مقولة مشهورة لدى المجريين مضمونها أن "في كل كيلومتر مربع ببلدهم يوجد شاعر" (في مدينة الضباب. 205) ولم ينس الكاتب ذكر مجموعة من الفنانين والأدباء بأسمائهم.

ولاشك أن من بين أهم أسباب هذا الازدهار في مجال الثقافة والأدب والفن، هو الاستقرار، واستتباب الأمن في البلد، مما جعله يقطع أشواطا كبيرة في طريق التطور، ويكفي للدلالة على هذا التطور الحضاري أن نشير إلى أننا بقينا أسبوعا

كاملا في بودابست لم نر فيه شرطيا واحدا وقد ذكرت ذلك مرة للدكتور ركيبي ونحن نسير في الشارع، ثم وقفنا أمام الضوء الأحمر مع المشاة، وإذا الدكتور ركيبي ينبهني إلى كلب صغير(كانيش) غير مربوط، وقد وقف مع الواقفين حتى إذا اشتعل الضوء الأخضر، سار معهم يجتاز الطريق، فعلق على ذلك إجابة على تساؤلي عن عدم وجود شرطة تنظم الناس أو تحكمهم بقوله "أرأيت؟ إنهم لا يحتاجون إلى شرطة ولا حتى شرطة مرور، فحتى الكلب يحترم القانون ويعرفه" (في مدينة الضباب. 199/ 200).

في هذا البلد يرى الزائر مظاهر الثقافة في كل شيء، وفي كل مكان، في المباني التاريخية المنتشرة، وفي المتاحف التي تنال اهتماما عظيما، وفي الموسيقى الراقية التي تعمل على الارتفاع بالأذواق، وفي انتشار الكتاب والمجلة.. الخ.. وفي مستوى البشر.

وكانت الرحلة إلى الاتحاد السوفياتي "وعلى ضفاف الفولقا" التي كتبها – كما قال– عن طريق الذاكرة بعد سنوات من تاريخ القيام بها سنة 1974 شبيهة بالرحلة إلى المجر، وذلك بمناسبة دعوته للمشاركة في الذكرى الأربعين لتأسيس اتحاد الكتاب السوفيات.

وهو يذكر في البداية بما كان يتمتع به الاتحاد السوفياتي آنذاك (أثناء القيام بالرحلة) على عكس ما صار عليه اليوم (أثناء كتابتها). وإن كان يرى أن روسيا ما زال لها –بالرغم من كل شيء– وزنها، وقيمتها الحضارية.

كانت هذه الرحلة شبيهة بالرحلة إلى المجر بسبب صبغتها الثقافية الغالبة، ومثلما كانت الرحلة إلى المجر بدعوة من اتحاد الكتاب، فكذلك هذه، إلا أن الرحلة إلى الاتحاد السوفياتي كانت بمناسبة كبيرة هي الاحتفال بالذكرى الأربعين لتأسيس اتحاد الكتاب السوفيات سنة 1934، فهي ليست مجرد رحلة لتبادل الزيارات كما كان الأمر مع الرحلة إلى المجر، ولكنها كانت رحلة لحضور الاحتفال بهذه الذكرى الذي لم يكن مجرد احتفال عادي، ولكنه كان مهرجانا كبيرا، يقول عنه الدكتور ركيبي أنه

لم يشهد له مثيلا في دنيا الأدب، ثم إن هذا المهرجان قد ذكره بالكاتب الكبير مكسيم غوركي مؤسس اتحاد الكتاب، هذا الكاتب العظيم الذي أبدى إعجابه الشديد به، وبأعماله الأدبية. والذي ظلت روحه –كما قال– تخيم على أجواء المهرجان. وهو الأديب العظيم الذي قال عنه أناتول فرانس "إن غوركي لا ينتمي إلى روسيا وحدها بل للعالم أجمع" (في مدينة الضباب. 225)

ومن بين الأمور التي لفتت انتباه الكاتب، وأظهر إعجابه بها فندق روسيا الضخم الذي يسع عشرة آلاف شخص، كما لفت انتباهه حضور المرأة، وأهمية دورها في المجتمع، وذلك بتوليها مختلف المهام والأشغال كالمناصب الإدارية والسياسية. واشتغالها في جميع الأعمال الأخرى بما في ذلك افران الحديد والصلب.

وقد قدم مثالا حيا وجيدا لما تقوم به المرأة من خلال رئيسة بلدية "قولقا غراد" وهي امرأة شابة لا يزيد عمرها عن الثلاثين عاما.

وكم أثارت دهشتنا وإعجابنا بذكائها وثقافتها ووعيها، كانت تتحدث عن كل صغيرة وكبيرة في بلدتها، تذكر الأرقام والإحصائيات من الذاكرة، وتسهب في شرح المنجزات والمشروعات.. كانت تجمع بين التواضع والرزانة والبساطة في اللباس.. وسرعان ما بدأت المقارنة في ذهني.." (في مدينة الضباب. 226).

كما لاحظ اعتزاز الروس بآثارهم وتاريخهم بصفة عامة، وما لفت انتباهه أن شبابهم صار لا يختلف في هيئته وتطويل شعره أو غير ذلك عن شباب الغرب عامة، وأن الأمريكيين الحاضرين يتعمدون نطق اللغة الإنجليزية بطريقة مفخمة لإثارة الانتباه، كما أنهم يسرفون في الشراء، وذلك أيضا مقصود لكي ينبهوا إلى غناهم وتميزهم عن غيرهم.

وقد شد انتباهه كثرة المترجمين في المهرجان. وهو يشير إلى أن الروس يعتبرون المترجم كاتبا، مع العلم أن الكاتب هناك يعيش بكتاباته. وهو يشير إلى حادثة طريفة وقعت له مع أحد الشعراء عندما سأله عن مهنته فرد عليه هذا "ألا يكفي أني أديب؟!" (في مدينة الضباب. 229).

ومن بين ما لفت انتباهه أيضا وأعجب به اعتزازهم الكبير بلغتهم، وإشادتهم بمن تعلمها من الآخرين غير الروس، كما شد انتباهه اهتمامهم إلى أبعد الحدود بالآداب والفنون، وبكل ما هو ثقافي والدليل على ذلك هذا الحفل الذي كما يقول عنه يشير إلى ما "يتمتع به الكاتب والأديب من مكانة في هذا البلد العريق" (في مدينة الضباب. 221).

وفي لقاء "فولقا غراد"، وعند إثارة قضية تحرر الشعوب، اغتنم الدكتور ركيبي الفرصة، وألقى سؤالا موضوعه مدى إحساس سكان فولقا غراد بقضية فلسطين فـ "جاء السؤال كحجر ألقي فجأة في بحيرة هادئة" (في مدينة الضباب.223)، وقد كانت الإجابة عن السؤال عامة هروبية نوعا ما، فالإتحاد السوفياتي – كما يذكر الكاتب– يضم آنذاك أكثر من ثلاثة ملايين يهودي. وقد علق على تلك الإجابة بقوله: "ولا أخفي عن القارئ بأن جوابه آلمني، فقد كان عاما" (في مدينة الضباب. 223) وعلى كل حال، فقد صفق الجمهور تصفيقا حارا عندما قدم الشاعر الفلسطيني معين بسيسو علم فلسطين هدية من أبو عمار.

وكعادته في زياراته المختلفة التي لا تفوته فيها فرصة اللقاء مع الأساتذة والأدباء والمفكرين، التقى الدكتور ركيبي مع مجموعة من الكتاب والأدباء الروس الذين ناقش معهم –على الخصوص– موضوع الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، ولامهم على كونهم لا يعرفون إلا هذا الأدب متجاهلين المكتوب بالعربية، وقد نبههم إلى أن أول كاتب جزائري زار بلادهم هو أحمد رضا حوحو الكاتب باللغة العربية، وذلك سنة 1950، وأنه قد نشر عند عودته إلى الجزائر رحلته في 15 حلقة وذلك في جريدة "الشعلة" فاندهشوا لذلك، كما لامهم على تخصيص مرافق له يتحدث الفرنسية عوض العربية، ويضيف:

"قلت لهم: إن هذا الوضع ينبغي تغييره الآن فوجه الثقافة في بلادي أصبح عربيا تماما، واقتنعوا بما قلت، وكان هذا في رأيي أفضل ما في رحلتي" (في مدينة الضباب. 229).

"وأخيرا مدينة الحلم والأحزان" هذا هو الموضوع الذي يختتم به هذا الكتاب، مع العلم أن الرحلة إلى هذه المدينة "مدينة القدس" لم تتم، وقد ظل الدكتور ركيبي طوال حياته يحلم بزيارتها، وهي المدينة العزيزة على قلبه وعلى قلوب كل الجزائريين، وقد كتب عنها شعراء جزائريون من بين أهمهم محمد العيد، ومفدي زكريا منذ العشرينيات من القرن الماضي، وكتب قبلهما، وقبل الحرب العالمية الأولى عمر راسم ينبه إلى خطورة الصهيونية. وقد أشار الدكتور ركيبي إلى الأهمية الكبيرة التي تحتلها هذه المدينة المقدسة لدى العرب والمسلمين، وهو يدين الغرب المتحضر" الذي صدع رؤوسنا بمقولات حقوق الإنسان والديمقراطية" (في مدينة الضباب 238) بينما يغض الطرف عندما يتعلق الأمر بفلسطين الجريحة.

يتأسف، بل يتألم الدكتور ركيبي كونه لم يتمكن من زيارة هذه المدينة العزيزة عليه، وهو يكتب عنها شبه مرثية نظرا لمأساتها التي لا تريد أن تنتهي.

* * *

عمل الدكتور ركيبي من خلال رحلاته للبلدان الغربية التي زارها على أن يركز على تقديم ما هو إيجابي ومثير للانتباه. وهو بذلك كأنما يدعونا للتأمل والاستفادة من هذا الإيجابي، من مظاهر التطور والحضارة التي وصلت إليها هذه البلدان، ومع ذلك فإنه لا يفوته أن يشير إلى بعض السلبيات التي يراها.

ومما لاشك فيه أن أهم بلدين أعجب بهما في أوربا هما ألمانيا وانجلترا. فهو يشيد بسكان بون في هدوئهم وأدبهم وابتسامتهم وحبهم الرياضة، فقد "عرف الألمان بالهدوء والصمت وقلة الثرثرة وهم في هذا يشبهون الإنجليز إلى حد ما" (في مدينة الضباب. 178). وفي برلين كما يقول "لم أصادف من يبتسم، أما القهقهات التي نعرفها نحن في العالم العربي فلا يعرفونها وأعتقد أن هذه الجدية هي التي أعادت بناء ألمانيا من جديد" (في مدينة الضباب. 192).

وأما في لندن فيلاحظ أن الابتسامات لدى الإنجليز "ترف على الشفاه" وهذه من الظواهر التي يلاحظها المرء في لندن أينما ذهب وحيثما أقام، فالمجاملة هي شعار الإنجليز.." (في مدينة الضباب .53).

ومثلما أن الوقت في ألمانيا "يحسب بالثانية" (في مدينة الضباب. 178) فإن أستاذ الإنجليزية في المعهد الذي كان يدرس به الدكتور ركيبي في لندن اعتذر لطلابه لأنه تأخر دقيقتين بالضبط" (في مدينة الضباب 55). والإنجليز يشبهون الألمان في الهدوء والصمت وربما فاقوهم في ذلك "لفت نظري هذا الصمت الذي ران على الركاب فنادرا ما تسمع أحدا يهمس أو يتحدث أو يعلق على موقف لا يعجبه.. لأن الإنجليز لا يميلون إلى الكلام الكثير عكس جيرانهم.." (في مدينة الضباب. 32/ 33)، وهم معروفون بالقدرة على كتم مشاعرهم، وقد "شهروا بالتحفظ في التواصل مع بعضهم البعض ومع غيرهم.. الملاحظ كذلك أن الإنجليز يمتازون عن غيرهم بالاستجابة إذا طلبت منهم المساعدة" (في مدينة الضباب. 33).

وهم يمتازون أيضا بالثقة في النفس وفي الآخرين، وباحترام الإنسان ففي المستشفى الذي كان يعالج فيه ابن الدكتور ركيبي سأله الطبيب المعالج: هل هو مقيم أم غير مقيم. فرد بأنه مقيم، واكتفى الطبيب بذلك، فعلق د/ ركيبي مخاطبا زوجته الحاضرة معه: "أرأيت كيف صدقني دون أن يطلب مني بطاقة الإقامة" (في مدينة الضباب. 37). وهو يشيد بلندن التي أحبها بسبب ما وجده فيها من راحة، يقول "ألقى فيها كل احترام وتقدير منذ وصولي حتى مفارقتي لها في حين أنني في باريس مثلا كنت عرضة لاستفزازات متكررة لمجرد أنني جزائري" (في مدينة الضباب. 108/ 109).

ففي لندن يحظى المرء بالاحترام ما دام يحترم الآخرين ويحترم القانون "عكس ما يحدث في مدينة النور، تتضاءل شخصيتك أمامهم" (في مدينة الضباب. 109) وهو يعلل علاقته تلك بباريس بأمور شخصية، وأخرى تاريخية "لعل الإهانات التي تلقيتها حين سجنت، وحين زرت هذا البلد الذي احتل وطني قد بنت سورا متينا بيني وبينه،

أحيانا أتساءل في عجب: كيف يتعاطف المرء مع جلاديه؟" (في مدينة الضباب. 109)، وهو يعود بعد أن يشير إلى علاقته بفرنسا غير الودية. إلى تأكيد علاقته الودية ببريطانيا: "اعترف هنا إحقاقا للحق أنني لم أتعرض لأية معاملة سيئة طوال زياراتي لبريطانيا" (في مدينة الضباب 111).

هو معجب بهذا البلد الأوربي إلى أبعد الحدود، ويعتبره أول بلد ديمقراطي في العالم، يقول معلقا على اجتيازه شرطة المطار للدخول إلى لندن "لا تشعر بالخوف مثلما حدث لي مرات عديدة في بعض البلدان العربية التي يستفزك فيها الشرطي وهذا هو الفرق بين بلد ديمقراطي وآخر يخشى من الديمقراطية" (في مدينة الضباب. 16).

وإعجابه بلندن لا يكاد يحده حد، هو معجب بكل شيء فيها "أحسست بأنني منجذب إلى هذه المدينة وإلى طرقاتها الواسعة وبناءاتها المترامية الأطراف، وكلما توغلنا فيها أدركت مدى اتساعها وشد انتباهي عماراتها، فمبانيها متشابهة متقاربة في علوها خاصة تلك الدور المستقلة "الفيلات" سطوحها يغطيها الآجر، الخضرة في كل مكان حتى في هذه الدور فهناك دائما حديقة أمام المنزل وأخرى خلفه بحكم القانون، إنها المساواة حتى في العمارة مما يجعل الناظر إليها يحس بالتناسق والفن والجمال.

في لندن يصعب على المرء أن يفرق بين منطقة وأخرى" (في مدينة الضباب 17) ومثلما أعجب الدكتور ركيبي ببريطانيا بصفتها كما يقول أول دولة ديمقراطية في العالم، وأعجب بسيادة القانون فيها، وبنظامها وعمارتها الخ.. فإنه يبدي إعجابه الشديد أيضا بألمانيا التي وحدها بسمارك في القرن 19 بدءا بعنصر اللغة "فالألمان يعتزون بلغتهم إلى حد التعصب أحيانا" (في مدينة الضباب.178). ويشير إلى دور الفيلسوف فيخته في هذا التوحيد، ثم ها هو قد جاء دور التوحيد الثاني بإسقاط جدار برلين. وتبدأ مرحلة جديدة في هذا البلد هي مرحلة النهضة التقنية والصناعية والعلمية" وكأنها (ألمانيا) تنتقم من أعدائها الذين حاربوها وقسموها بعد الحرب العلمية الثانية، مثلها في ذلك مثل اليابان تماما" (في مدينة الضباب. 174).

وهو يشيد بنظافة مدينة بون، وجمال عمارتها، مشيرا إلى أنواع صناديق القمامات" حتى لا تختلط الأشياء وأيضا حتى تستغل من جديد بعد إعادة تصنيعها لتفيد الطبيعة والإنسان" (في مدينة الضباب. 174).

وما أزعجه في بون هو "الطقس العجيب المتقلب... وأصوات القطارات التي لا تهدأ وكذا نواقيس الكنائس.. وأصواتها رتيبة ثقيلة وكأنها تعلن عن نفسها أو توحي بأن الدين موجود رغم أن الكثرة الغالبة من الشعب لا تذهب إلى الكنيسة إلا في الأعياد ربما" (في مدينة الضباب. 176).

إن هذا البلد – كما يلاحظ– يسير بخطوات جبارة نحو التطور في جميع المجالات ففي محطة القطار –مثلا– "يكفي أن تضغط على الأزرار لتظهر لك الأوقات التي تريد أن تختارها نحو هدفك كما تجد جهازا آخر تضع فيه النقود فتخرج لك بطاقة السفر" (في مدينة الضباب.182) وهو يلاحظ "أن التقنية الحديثة في ألمانيا تقدمت بمراحل عن مثيلاتها في البلدان الأوربية إلى حد أن الناس هنا يعتبرون فرنسا وأمثالها بلدانا متخلفة بالقياس إليهم" (في مدينة الضباب. 182).

ومثلما يحدث دائما مع جميع الكتاب والأدباء القادمين من البلدان المتخلفة وبلدان العالم الثالث، من كونهم عندما يصفون مظاهر التقدم الحضاري في البلدان الغربية المتطورة، أو غير الغربية، فإنما يفعلون ذلك وفي خلفية تفكيرهم بلدانهم التي تركوها وراءهم. مثلما يحدث مع هؤلاء يحدث للدكتور ركيبي تماما، الذي قد يكتم أحيانا ما في نفسه مكتفيا بتصوير ما لدى الآخر المتطور، بينما لا يستطيع تحمل الكتمان أحيانا أخرى "متى نلحق بهذا الركب؟ أحيانا أشعر أن بيننا وبينهم سنوات ضوئية إذا بقينا نسير على هذا النمط من التفكير والسياسة والحكم أيضا" (في مدينة الضباب 182/ 183).

لقد ذهب هؤلاء بعيدا في جميع المجالات، فهذه ألمانيا يسود فيها مثلما هو الأمر في بريطانيا "احترام قانون السير والسرعة حسبما هو مسجل في الإشارات" (في

مدينة الضباب. 185) فالقانون يخضع له الجميع "لا فرق بين الحاكم والمحكوم" (في مدينة الضباب. 185).

ولاشك – كما يرى– أن انجلترا وألمانيا هما الأكثر تطورا في أوربا. فوهو متجهة بالسيارة من ألمانيا إلى بلجيكا لاحظ وجود اختلاف واضح بين طرقات ألمانيا الجميلة المتطورة، وطرق بلجيكا الضيقة المتخلفة المرقعة بآثار ترميم الحفر.

وعلى العموم فإن أوربا كلها قد تجاوزتنا ككتلة متكاملة ومتضامنة بالرغم من بعض الفروق فيما بين دولها، ففي الحدود الألمانية البلجيكية مثلا لا وجود للجمارك لا في الذهاب ولا في الإياب. هذه هي الوحدة "أما الشعارات البراقة فلا تحقق شيئا" (في مدينة الضباب. 187).

ومعروف طبعا من هم أصحاب هذه الشعارات البراقة التي لا تحقق شيئا. هناك إذن بلدان كبيرة وقوية متطورة هي التي تقود الركب، فهذه ألمانيا قد عادت إلى مجدها السابق بفعل العزم والإرادة القوية "برلين وهي الآن تقود أوربا اقتصاديا وسياسيا أيضا، وكأنها القاطرة والباقي عربات تتبعها حتى بريطانيا وفرنسا" (في مدينة الضباب. 191). وتفرض مرة أخرى المقارنة نفسها بيننا وبينهم بمناسبة ذكر الجامعة: "رافقت ولدي إلى مكتبه الخاص حيث يلتقي طلبته ويرد على استفساراتهم، ومكتبه منظم وفيه حاسوب يستخدمه حين يشاء، والهاتف بالطبع، في تلك اللحظة خطر ببالي حال الأستاذ الجامعي عندنا" (في مدينة الضباب 192).

هذه هي ألمانيا، وهذا هو شعبها الجبار صاحب الإرادة المتميزة، ألمانيا التي كان لمفكريها الكبار، فيخته وهيدغر وشوبنهاور وغوته وغيرهم دورهم الأساسي في توحيدها، وتوحيد ثقافتها ولغتها. و"تلك هي الشعوب التي تفرض وجودها وتحافظ على هويتها ووحدتها وتاريخها كيفما كان" (في مدينة الضباب. 194).

ولا تخلو الرحلة من ذكر للطبيعة والإعجاب بها، فالكاتب أديب صاحب ذوق رفيع، يشد انتباهه كل ما هو جميل في الكون والمجتمع ومنه الطبيعة التي نجد مناظرها وأشياءها تتكرر عنده كلما سنحت الفرصة، فها هو مثلا يصف منظر

غروب الشمس الجميل وهو في رحلة عودته إلى لندن "وشدني منظر الشمس في هذه العشية حيث كانت أشعتها الذهبية تنساب على رؤوس الأشجار في حنو ورفق وتتخلل الأغصان فتحدث مشهدا شاعريا بديعا، وما يزيد من هذا الجمال الطبيعي تلك المباني المتناثرة هنا وهناك مما يدفع النفس إلى الاندماج في هذه الطبيعة الساحرة" (في مدينة الضباب. 125/ 126).

وفي ألمانيا وهو يتجه إلى بيت الابن، يقول "لم نشعر بالمسافة فالطبيعة جميلة، والطرق واسعة معبدة ونظيفة" (في مدينة الضباب.. 166). ويعجبه كثيرا "الهدوء الذي يعم المنطقة" (في مدينة الضباب. 167) وهي قريبة من نهر الراين.

وعلى ذكر "الراين" يلوم الكاتب الجزائريين الذين لا يعرفون هذا النهر العظيم، وتقتصر معرفتهم على نهر السين الفرنسي، مع أن مجموعة من الجزائريين المحبين للحرية قد تم الإلقاء بهم فيه يوم 17 أكتوبر 1961 "أما الراين والتميز فلم نعرفهما إلا في الآونة الأخيرة بعد أن بدأ الجزائريون يخرجون من شرنقة فرنسا" (في مدينة الضباب. 167).

وبعدما قدم وصفا جميلا لنهر الراين وضفتيه، والبنايات الجميلة الفخمة المنتشرة على جانبيه، وكذلك الحدائق، والجبال، الخ.. راح يعبر عن راحته النفسية وهو يتجول في الطرقات والحدائق الهادئة، مقارنا "فأنا هناك (في الجزائر) لا أجد فرصة للتريض دون خوف من الإرهاب أو من اللصوص أو حتى من المناظر المؤذية للعين والقلب، وما أكثرها في هذه الأيام" (في مدينة الضباب. 171).

وهكذا فالمقارنة دائما حاضرة، ففي الوقت الذي كانت تشد انتباهه المناظر الجميلة، وسيادة الأمن في كل مكان يذهب إليه حتى الغابات أو الأماكن الخالية، في بون وغيرها، في ذلك الوقت (سنة 2001) كان الإرهاب ما يزال يفسد على الناس راحتهم في الجزائر، إضافة إلى أمور أخرى مقلقة.

ومع ذلك فالجزائري لا ينجو من الإرهاب حتى خارج بلاده، فـ "من المؤكد أن المرء يحمل وطنه معه أينما ذهب" (في مدينة الضباب. 116) وعند زيارته إلى لندن

سنة 1993 يقول "صدمت من تغير معاملة صاحبة المسكن الذي أجرته بسبب الأحداث في وطني، ورغم محاولتها إخفاء مشاعرها وراء ابتسامة متكلفة إلا أنني شعرت بعدم ترحيبها بي داخل نفسها" (في مدينة الضباب. 112).

والدكتور ركيبي بعد هذا موضوعي في نظرته إلى الغرب، فهو يقدمه بإيجابياته وسلبياته. فهو ينتقد –مثلا– الغرب في إطلاقه الحرية لليهود ليفعلوا ما يريدون بحجة "المحرقة" مما جعلهم يتعدون الحدود ويسيئون إلى الآخرين. ومن بين المساء إليهم على الخصوص العرب والمسلمون. كتسميتهم أحد محلات اللهو في لندن باسم "بوكر مكة" وهم يفعلون هذا "في بلدان تزعم أنها متقدمة تحترم الأديان وترفض التعصب الأعمى" (في مدينة الضباب.97).

ولا ينسى وهو في ألمانيا أن يفكر أن الألمان لابد لا يحبون اليهود لآن هؤلاء أذلوهم وابتزوهم منذ الحرب العالمية الثانية. ولكن الألمان لا يستطيعون الإفصاح عما في أنفسهم، وهو يقارن بين اليهود، هؤلاء الذين حصلوا على كل شيء بإدعاء المحرقة، وبين الجزائريين الذين ما زالت قبور الذين حاربوا منهم إلى جانب فرنسا في الحرب العالمية الثانية ضائعة في فرنسا وأوربا.

ثم إن هناك من بين سلبيات هذه المجتمعات الغربية ظاهرة إهمال فئات من البشر المعدمين الذين يعيشون تحت القناطر، وفي أرصفة الطرقات ويأكلون القمامة بينما يحظى الحيوان برعاية كبيرة "أن يكون الحيوان مفضلا على الإنسان بحيث يعيش الأول مرفها مدللا ويموت الأخير فقرا وجوعا ومرضا فهذا أمر غريب" (في مدينة الضباب. 161).

وهو يشكو من أن هذا الأمر بدأ ينتشر عندنا أيضا تقليدا للغرب طبعا. كما بدأت تنتشر في هذا الغرب المتحضر بعض المظاهر الدالة على العنصرية كظهور "حركة النازيين الجدد" في ألمانيا. وجماعة "الرؤوس الحليقة" في بريطانيا، والعنصريين اليمنيين المتطرفين في فرنسا، وظهور في بلجيكا وبعض البلدان الأوربية

الأخرى، من يطالب بوقف الهجرة إلى هذه البلدان والخوف "أن تتطور هذه الدعوات مستقبلا إلى ما لا تحمد عقباه" (في مدينة الضباب. 190)

وهو على كل حال لا يعمم عندما ما يتحدث عن موضوع العنصرية، ففي هذه الشعوب فئات هي التي يمكن أن ينطبق عليها هذا الوصف، وحتى الفرنسيون ليسوا جميعا على شاكلة بعض الأقدام السوداء.

وهو بسبب موضوعيته ونظرته اللاعاطفية للموضوع لا يبرئ ساحتنا نحن الجزائريين مما يحدث لنا –أحيانا– لدى الآخرين هناك بدون شك من تسبب منا فيما يحدث لنا من معاملة سيئة ومهينة مع أن أرضنا "لا مثيل لها في الدنيا" (في مدينة الضباب. 134).

ومع أن كتاب "في مدينة الضباب ومدن أخرى" هو كتاب رحلات قام بها المؤلف إلى مجموعة من العواصم والمدن خارج الجزائر بالإضافة إلى تخصيص فصل لمدينة القدس التي كان يحلم بزيارتها، فإنه لم يستطع أن يتجاوز الجزائر عاصمة بلاده التي يعيش بها فـ"الجزائر" دائما في العين والقلب والوجدان" (في مدينة الضباب. 98).

والجزائر العاصمة هي قبل كل شيء رمز البلاد. وقد زارها المؤلف لأول مرة سنة 1955 ثم سنة 1956، ثم مع الاستقلال سنة 1962، وكذلك عام 1964 عند العودة من الدراسة ليستقر فيها منذ ذلك الوقت.

يبدي الدكتور ركيبي إعجابه الشديد بجمال هذه المدينة، ويتساءل "لماذا لم يكتب الشعراء عنها كثيرا" (في مدينة الضباب. 102) في الوقت الذي أعجب بها الإنجليز الذين "أبدعوا في وصفهم للمدينة القديمة ولاسيما حي القصبة العتيق" (في مدينة الضباب. 102) وهو يتألم لكون العاصمة قد شوهت "بهذه الفوضى العمرانية الغريبة وتلك الأكواخ القصديرية والبنايات الفوضوية" (في مدينة الضباب. 104) وهو يشير إلى أن في الجزائر عمارتين مختلفتين جذريا: إسلامية عريقة لم نحافظ عليها وأخرى فرنسية.

وهو مثلما ينتقد الفوضى العمرانية، فكذلك ينتقد تبدل طبيعة الناس في العاصمة إلى أسوأ ما بين بدايات الاستقلال والوقت الحاضر: "إن من يقارن بين الأمس واليوم يصاب بصدمة عنيفة" (في مدينة الضباب. 104) وهو يرى أنه قد "حدث زلزال في مجتمعنا قضى على كثير من القيم النبيلة" (في مدينة الضباب. 105).

ولا ينسى وهو يتحدث عن الجزائر العاصمة، أن يستطرد ليطرح موضوع الأحداث الأليمة التي مرت بها الجزائر في العشرية الأخيرة من القرن. وهو ينظر نظرة متشائمة إلى كل ما حدث ابتداء من أحداث أكتوبر 1988. "الكل يتحدث بصوت مرتفع عن شيء سيقع، من الذي أطلق هذه الإشاعات لا أحد يدري" (في مدينة الضباب. 98) وهو يتحدث عن نفسه، وعما جرى في ذلك اليوم (5أكتوبر) "لم أجرؤ على الخروج فأنا لا أحب مشاهدة الحرائق، والتخريب والنهب، والسلب فهي من مظاهر التخلف والنزق والتهور" (في مدينة الضباب. 98).

ومع ذلك لم ينج من رؤية – ولو من شرفة بيته– بعض ما جرى، وهو يصفه كالتالي: "يا له من منظر رهيب لن يفارقني مدى الحياة، هل أصبح الحريق فرصة للحصول على أي شيء حتى ولو كان بطريق السلب ونهب المؤسسات العمومية" (في مدينة الضباب. 99).

والمؤسف أن تلك الأحداث –كما يرى– كانت مجانية لم تحقق طموح الشعب، وهو الذي قدم ضحايا، وقد ذكرته هذه الأحداث بالصراع على الكرسي سنة 1962 "مما جعل فرحة الاستقلال تنقلب إلى غمة بل إلى غصة ما زالت تحاصرني حتى اليوم" (في مدينة الضباب. 101).

وهو يرى –بحق– أن ما شوه سمعتنا هي تلك المجازر الوحشية التي كانت تنقل أخبارها وسائل الإعلام في العالم كله، ويقر بأن "الأمن هو مفتاح السعادة" (في مدينة الضباب. 108). وهو يشعر عندما يقارن بين الجزائر وبريطانيا بالغيرة "من هؤلاء الضاحكين السعداء الذين لا ينتابهم شعور بالخوف أو باقتراب الموت فإحساسهم بالزمن يختلف عن إحساسنا به" (في مدينة الضباب. 108) وحتى إذا

ضحك الجزائريون فإن "ضحكاتهم تبدو مفتعلة لمجرد التنفيس عن مكبوتاتهم" (في مدينة الضباب.118).

ولا يرى أي معنى لما يحدث، وللتضحيات الجسيمة التي قدمها أبناء الشعب الجزائري، وفقط كان "سماسرة الموت والسياسة يتصارعون من أجل المصالح والمنافع وما داموا لا يصطلون بنار الموت والدمار فهم لا يفكرون في حل هذه المعضلة" (في مدينة الضباب. 119).

فالجزائري – إذن– هو من يقدم الثمن سواء في الداخل، أم حتى في الخارج، وقد لاحظ أن التشاؤم صار يسيطر على الجميع بما في ذلك "النخبة نفسها (التي) أصابها اليأس مثل المواطن العادي" (في مدينة الضباب. 135).

لقد أصبح الجزائري محاصرا يحمل الإرهاب في داخله، "أصبحت صفة الإرهابي تطاردنا أينما اتجهنا حتى ترسخ في داخلنا الخوف من الآخرين" (في مدينة الضباب. 164). لأن هؤلاء الآخرين صاروا – فعلا– ينظرون إلينا نظرة خاصة، وهو يعتبر ذلك أمرا طبيعيا، فنحن من تسبب في ذلك كله، ولكنه يتألم –فقط– لمعاملة إخواننا في البلدان الشقيقة "ما أقسى أن تشعر بالمرارة من الأشقاء أما الأعداء فذلك شيء طبيعي ومعاملتهم أمر متوقع" (في مدينة الضباب. 164– 165).

ومع ذلك، فرب ضارة نافعة – كما يقال – فهجرة كثير من الجزائريين أثناء الأزمة كانت مفيدة لهم مكنتهم من التعرف على بلدان ولغات غير فرنسا ولغتها، خاصة وأنه لا عداوة بيننا وبين تلك البلدان.

وفي الختام يتضح لنا أن هذا الكتاب الهام ليس مجرد رحلات إلى مدن وعواصم عالمية يحاول الكاتب من خلالها نقل مشاهداته، وإبداء ملاحظاته، ولكنه رحلة في فكر الكاتب نفسه، هو جولة في آرائه وأفكاره، ومواقفه إزاء مختلف المسائل الثقافية واللغوية، والحضارية والسياسية، وغيرها التي كانت تشغل ذهنه وهو يسجل هذه الرحلات.

ثم إن هذا الكتاب يكشف من جهة أخرى جوانب هامة من السيرة الذاتية لمؤلفه، ولو لم يكن قصده من تأليفه تقديم سيرته الخاصة، فهو يقدم للقارئ محطات هامة من حياته ابتداء من بدايات الثورة التحريرية حتى نهاية القرن الماضي.

إن الرحلة عندما يكتبها كاتب أديب مفكر ومثقف كبير مر بتجارب حياتية غنية، لابد تكون رحلة هامة غنية بما يمكن أن تقدمه للقارئ.

ونحن نعتقد أن "في مدينة الضباب ومدن أخرى" كتاب هام له مكانته المتميزة في مسار الثقافة الجزائرية الحديثة والمعاصرة.